حكايات نحبها جميعاً

(١٨)

إنها العائلة الورعة الشجاعة

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

حقّاً: لَيْسَ لَهُ فِي الدُّنيا نَظِيْرٌ!!

فِي رِحَابِ المَسْجِدِ الجَامِعِ الأُمَويِّ بِدِمَشق، اجْتَمَعَتِ الصَّديقاتُ عَلَى مَوْعِدٍ سَابِقٍ، وذٰلِكَ بِهَدَفِ التَّعَرُّفِ على آثارِ وَمَعالِمِ المَسْجِدِ، وَوقَفْنَ بِكُلِّ خُشُوعٍ أَمَامَ ذلكَ العَمَلِ العَظِيمِ.

وَبعْدَ قَلِيلٍ جاءَ المُرْشِدُ السِّياحِيُّ المُكَلَّفُ بشَرْحِ ما يَتعلَّقُ باسْتِفساراتِ الزُّوَّارِ، وبتقدِيْمِ الأجْوِبَةِ الكَافِيَةِ عن ذَلِكَ..

اقْتَرَبَتْ (مَيْسُون) مِنْهُ وسَأَلتهُ: مَنْ الذِي بَنَىٰ هَذا المَسْجِدَ العَظِيمَ؟

ورَاحَ المُرشِدُ السِّيَاحِيُّ يَتَحدَّثُ عَنْ تَارِيخِ

المَسْجِدِ وَمَعالِمِهِ ومَيِّزاتِهِ ومَا يَدُورُ حَوْلَهُ ، وكانَ مِمَّا قالَهُ:

بَعْدَ انتِهَاءِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ ، آلَ الأَمْرُ إلى الأُمَوِيِّين ، فحوَّلُوا عاصِمَةَ الخِلافَةِ إلى دِمَشقَ ، وتَعَاقَبَ على سُدَّة الحُكْمِ عِدَّةُ خُلَفاء.. ، وذلكَ بينَ عامَي (٤١ ـ ١٣٢ هـ).

وَفي عَهْدِهِمْ كَثُرَتِ الفُتُوحاتُ الإسلامِيَّةُ ، وفاضَ المَالُ والأَرْزَاقُ ، وعَاشَ النَّاسُ فِي بُحْبُوحَةٍ لا مَثِيلَ لَها.

ولمَّا آلَ الأَمرُ إلى (الوَلِيدِ بن عبدِ المَلِك) وكَانَ ذلكَ فِي سَنَةِ (٨٦ هـ) اهْتَمَّ كَثيراً بِالبناءِ والعُمْرَانِ ، وحَفْرِ الآبارِ ، وَشَقِّ الطُّرُقاتِ ، وبِنَاء المُسْتَشفَياتِ.

وأَمرَ بِهَدْمِ المَسْجِدِ النَّبويِّ.. ثُمَّ ضَمَّ إليهِ

عَدَداً مِنَ الدُّورِ المُحِيطَةِ بهِ ، وَوسَّعَهُ وأَتْقَنَ بِنـاءَهُ ، وهَكـذا فَعَـلَ فِـي المَسجـدِ الحَـرَامِ ، والمَسْجِدِ الأَقْصَى.

أمَّا هَذا البِناءُ العَظِيمُ ، فَقَدْ أَمَرَ بِبنَائِهِ (الوَليدُ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، واسْتَقْدَمَ لَهُ كِبارَ العُمَّالِ الفَنِّيِّينَ وكبارَ المُهَنْدِسينَ ، وأنْفَقَ عَليهِ أَكْثَرَ من (١١) مِليُونِ دِينَارٍ ذَهَبِيٍّ ، وبَقِيَ العَمَلُ فيهِ أَكْثَرَ مِنْ (٩) سنواتٍ!!

وَسِيْرةُ حَياةِ (الوَلِيدِ) سِيْرَةٌ عَطِرَةٌ ، فَقَدْ كَانَ كَثِيرَ التِّلاوةِ للقُرآنِ ، كَثِيرَ الإنفاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَثِيرَ الاهتمامِ بِشَعَائِرِ اللهِ سُبحانَهُ.

وهَكَذا ، تَجَوَّلَتِ الفَتَياتُ فِي صَحنِ المَسْجِدِ ثُمَّ دَخَلْنَ إلى داخِلِهِ ، وسَمِعْنَ مِنَ المُرْشِدِ السِّيَـاحِـي نُبْـذَةً مُخْتَصَـرَةً عَـنْ هـذا المَسْجِـدِ العَظِيم..

وَفِي سُوقِ الحمِيديَّةِ

وَبعدَ مُضِيِّ أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ غادَرَتِ الفَتَياتُ المَسْجِدَ الجَامِعَ ، وفِي زَحْمَةِ سُوقِ الحَمِيدِيَّةِ خطرت بِبَالِ (نَاهِد) فِكْرَةٌ ، وهِيَ اسْتِفسارٌ بَسِيطٌ: مَاذا كَانَ دَوْرُ زَوْجَةِ (الوَلِيدِ)؟ ومَنْ هِيَ زَوْجَةُ الخَلِيْفَةِ الوَلِيد؟!

نَظَرَتْ (مَيْسُونُ) إلى مَلامِحِ وَجْهِ (نَاهِدٍ).. ثُمَّ انْحَنَتْ قَليلاً نَحوَ صَدِيْقَتِهَا (عَلياء) وهَمسَتْ في أُذُنَيهَا قائِلَةً: انظُرِي حالَ صَدِيْقَتِنَا (نَاهِد) كَأَنَّها تُكَلِّمُ نَفسَها!!

ابتَسَمَتْ (عَلياءُ) ثُمَّ سَأَلَتْ (نَاهِد): ما لَكِ يا عَزِيزَتِي ، وما الذي يَدُورُ فِي ذِهْنِكِ؟!

قالَتْ (نَاهِدٌ): لا شَيءَ أَبداً ، إلا أَنِّي وَجَدْتُ فِكْرَةً رائِعَةً ، وهيَ البَحثُ والتّفْتِيشُ عَنْ تَرْجَمَةِ

حَيَـاةِ زَوْجَـةِ الخَلِيْفَـةِ الأُمَـوِيِّ (الـوَلِيـد بـن عبد الملك).

وسَارَتِ الصَّدِيقاتُ في سُوقِ الحَمِيديَّةِ ، ثُمَّ تَوَقَّفْنَ كَثيراً عِندَ الأبنيةِ الأثريّةِ هُناكَ ، وخَاصَّةً قَلْعَةِ دِمَشْقَ العَظِيْمَةِ.

وعِنْدَ أَذَانِ المَغْرِبِ ودَّعَتْ (نَاهِدٌ) صَدِيقَاتِها وسارَتْ باتِّجاهِ البَيتِ.. ولمَّا قَرَعَتْ جَرَسَ بابِ البَيتِ ، فَتَحَ والِدُهَا البَابُ وبادَرَهَا بِسُؤالٍ مَعْرُوفٍ: ما الذي يَشْغَلُ بالَكِ يا عَزِيْزَتِي؟!

ابتَسَمَتْ (نَاهِدٌ) وَقَالَتْ: لا شَيءَ يا والِدِي سِوَىٰ مَزِيْدٍ مِنَ التَّفْتِيشِ والبَحْثِ عَنْ تَراجِمِ النِّساءِ الفَاضِلاتِ ، واللاتِي سَطَّرْنَ مَلامِحَ الحَضَارَةِ. ومَسَحَ الوَالِدُ بِيَدِهِ عَلىٰ رَأس (نَاهِد) ودَعَـا اللهَ لَهَـا بـالتَّـوفيـقِ والسَّـدادِ والصَّبْـرِ والمُثَابَرَةِ..

وفي صَالُونِ البَيتِ حَكَتْ (نَاهِدٌ) لأَفْرَادِ أُسْرَتِهَا مُلَخَّصَاً عَمَّا جَرَىٰ مَعَهَا فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ الجَمِيلةِ الشَّائِقَةِ.

ثُمَّ قالَتْ لِوالِدِهَا: فَمَاذا عَنْ زَوْجَةِ الخَلِيْفَةِ الأُمَوِيِّ (الوَلِيْد بنِ عَبْدِ المَلِك)؟

وحَاوَلَ الأُسْتَاذُ (نَاجِي) أَنْ يَتَذَكَّرَ ما هُوَ اسْمُ زَوْجَتِهِ، ومَنْ هِيَ، لَكِنْ دُونَ جَدْوَىٰ ، فَقَالَ لابْنَتِهِ (نَاهِد): مُنذُ الصَّباحِ البَاكِرِ عَلَيْكِ أَنْ تَقُومِي بِتَرْجَمَةٍ وَافِيَةٍ عَنْ زَوْجَةِ الوَليدِ.. فَمِنَ العَيبِ والعَارِ أَنَّنَا نَعرفُ الكَثيرَ عَنْ نِساءٍ تافِهاتٍ ولا نَعرِفُ شَيئاً عَنْ عَمالِقَةِ تَارِيخِنَا الإسْلاميِّ..

إِنَّهَا أُمُّ البَنِين!!

وفي صَبِيْحَةِ اليَوْمِ الثَّاني ، أَيقَظَ الوالِدُ

ابنتَهُ (نَاهد) وبَعدَ أَنْ تَنَاوَلَ أفْرَادُ الأُسْرَةِ وَجبَةَ الإفطارِ ، قَالَ لَها: لا تَتأَخَّرِي ، فأَنا أنتَظِرُكِ بعْدَ صَلاةِ العَصْرِ فِي البَيْتِ لِتُسمِعِيني ما كَتَبْتِهِ عَنْ تَرجَمَةِ زَوْجَةِ الخَلِيفَةِ (الوَليد).

وحَمَلَتْ (نَاهِدٌ) أَوراقَها وانْطَلَقَتْ إلى المَكْتَبَةِ التَّاريخيَّةِ ، وكَالعَادَةِ ، غَاصَتْ بينَ الكُتُبِ والمُجلَّدَاتِ ، وسارَ الوَقْتُ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ ، لَكِنَّها اسْتَطَاعَتْ إنْجَازَ مُلخَّصٍ مُفيدٍ ونَافِعٍ.

ثُمَّ عَادَتْ إِلَىٰ البَيْتِ ، فَأَدَّتْ صَلاةَ الظُّهْرِ ، ثُمَّ تَنَاوَلَتْ طَعَامَ الغَداءِ معَ عائِلَتِها ، وبَعْدَها أَخْلَدَتْ إِلَىٰ النَّومِ قَليلاً لِتَرْتَاحَ مِنْ عَناءِ المُطالَعَةِ والبَحْثِ.

وبَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ ، تَحَلَّقَ أفرادُ الأُسْرَةِ حَوْلَ المِدْفَأَةِ ، وبَدَأَ الوَالِدُ الحَدِيثَ بِقَوْلِهِ: كُلُّنا

آذانٌ صاغِيَةٌ لِسَمَاعِ تَرْجَمَةٍ وَافِيَةٍ مِنَ البَاحِثَة (نَاهِد).

وأَخْرَجَت (نَاهِدٌ) مِنْ محفظَتِها عَدَداً مِنَ الأوراقِ ، ورَاحَتْ تَحكِي لَهُمُ الحِكَايَةَ:

إِنَّها (أُمُّ البَنِينَ) ، أَبُوهَا (عَبد العَزِيزِ بن مَروان) ، وعَمُّهَا الخَلِيْفَةُ (عَبْدُ الملِكِ بن مَروان) وزَوْجُهَا الخَلِيْفَة (الوَلِيْدُ بنُ عَبدِ المَلِك) ، وأَخُوها الخَليفةُ (عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزِيز) رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالى..

فَكَيْفَ كانَ حَالُ (أُمِّ البَنِينَ) وَهِيَ التي نَشَأَتْ فِي بُيُوتَاتِ الإمارَةِ والخِلافَةِ؟

كَانَ مَوْلِدُهَا فِي المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ ، ولمَّا كَبُرَتْ تَزوَّجَتْ مِنِ ابنِ عَمِّها (الوَليد) ، وقَدْ نَشَأَتْ نَشأَةً دِيْنِيَّةً علميَّةً ، فَمُنذُ الصِّغَرِ حَفظَتْ كَثِيراً مِنْ

سُورَ القُرآنِ الكَرِيمِ ، وكَثيراً مِنَ الأَحادِيثِ النَّبويَّةِ ، وتَفَقَّهَتْ فِي كَثيرٍ مِنَ المَسائلِ الفقْهِيَّةِ ، وكانَتْ تَميلُ كَثِيراً إلى مُناجَاةِ اللهِ تَعالىٰ ، والوُقُـوفِ بَينَ يَدَيـهِ ، وإنفَاقِ الأمْوالِ فِي سَبِيْلِهِ.

وَقَدْ كَانَتْ تُردِّدُ: عَجَباً لِمُؤمِنٍ يُؤمِنُ ويُوقِنُ أنَّ اللهَ يَرْزُقُهُ ويَخلفُ عَليهِ ، كَيفَ يَحْبِسُ مَالاً عَنْ عَظِيمِ أَجْرٍ ، وحُسنِ ثَناءٍ.

وكانَتْ تُرَدِّدُ: جُعِلَ لِكُلِّ قَومٍ نَهْمَةٌ فِي شيء ، وجُعِلَتْ نَهْمَتِي فِي البَذْلِ وَالإعطاءِ ، واللهِ للصِّلَة والمُواسَاة أحبُّ إليَّ مِنَ الطَّعامِ الطَّيِّبِ على الجُوعِ ، ومِنَ الشَّرابِ البَارِدِ علَىٰ الظَّمَأ.

وكانَتْ تُرَدِّدُ: ما حَسَدْتُ أَحَداً قَطُّ علَىٰ شيءٍ إلاّ أَنْ يَكُونَ ذَا مَعْرُوفٍ ، فإنِّي أُحبُّ أَنْ أُشْرِكَهُ فِي ذلكَ.

وَيْحَكَ يا حَجَّاج!!

تابَعَتْ (نَاهِدٌ) الحِكَايةَ بِقَولِها:

وَأُتِيَتْ (أُمُّ البَنين) مِنَ الشَّجاعَةِ والفَصَاحَةِ وقُوَّة المَنْطِقِ وَفصل الخِطَابِ ومَا إلىٰ هُنالِكَ الشَّيءَ الكَثِيرَ ، مِنْ ذٰلِكَ قِصّتُها مَعَ البَطَلِ المَشْهُورِ: (الحَجَّاج بن يوسفَ الثَّقَفِيِّ: ت ٩٥ هـ).

ذَاتَ لَيلةٍ دَخَلَ (الحَجَّاجُ) عَلَىٰ (الخَلِيْفَةِ الوَلِيدِ) ، فَلَمَّا عَلِمَتْ (أُمُّ البَنِين) أَنَّ الحَجَّاجَ يَحْمِلُ السِّلاح و.. ، أَرسَلَتْ جَارِيَتها إِلَى زَوْجها، فَهَمَستْ فِي أُذُنِهِ: إِنَّ سَيِّدَتِي تَقُولُ لَكَ: واللهِ ما أُحبُّ أَنْ يَخْلُوَ بِكَ وَقدْ قَتَلَ الخَلْقَ ، وأَهْلَ الطَّاعَةِ والحَقِّ ، واللهِ لأَنْ يَخْلوَ بِكَ مَلكُ المَوْتِ ،

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَخْلُو بِكَ الحَجاجُ بنُ يُوسُف!

وانْتبهَ الحَجَّاجُ لِذلكَ ، لكنَّهُ صَبرَ وأَظْهَرَ أَنَّ ذَاكَ الأَمْرَ لا يَعْنِيهِ.

ولمَّا هَمَّ بالانصِرافِ ، قَدَّمَ لِلخَلِيْفَةِ نَصِيْحَةً فَحْوَاهَا: أَنْ لا يَأْمَنَ النِّساءَ وَلا يُطلِعُهنَّ على سِرٍّ ، ولا يُعامِلُهُنَّ إلاّ كمَا يُعَامِلُ الرَّجُلَ أَمَتَهُ..!

ولَمَّا وَصَلَ خَبَرُ نَصِيحةِ الحَجَّاجِ للوَلِيدِ إلى مَسَامِعِ (أُمِّ البَنِين) أَقْسَمَتْ باللهِ لَتَرُدَّنَّ لَهُ الصَّاعَ صَاعَين.

وَبعدَ فَترةٍ طَلَبَتْ (أُمُّ البَنِين) مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَأْمُرَ (الحَجَّاج) بِأَنْ يَدْخُلَ عَليهَا فَيُسَلّمَ عَلَيْهَا...

وأَمَرَ (الخَلِيْفَةُ) الحَجَّاجَ بِأَنْ يَفعَلَ ذلكَ ، فَمَاذَا فَعَلَتْ (أُمُّ البَنِين)؟.

أَمَرَتْ بِحَجْبِهِ طَوِيْلاً ، ثُمَّ لمَّا أَذِنَتْ لَهُ ،

دَخَلَ ، فَتَركَتْهُ قائِماً ، ثُمَّ بادَرَتْهُ بِقَوْلِهَا: لَقَدْ قَتَلْتَ (عَبدَ اللهِ بنَ الزُّبير) وَهُوَ صاحِبُ المَناقِبِ الشَّهِيْـرَةِ ، الصَّـوامُ القَـوَّامُ ، وأَوَّلُ مَـوْلُـودٍ لِلمُسْلِمينَ بَعدَ الهَجْرَةِ..!

وَيْحَكَ يا بْنَ يُوسُف ، أَمَّا وَاللهِ لَوْلاَ أَنَّ اللهَ عَلِمَ أَنَّكَ شَرُّ خَلْقِهِ ، وأَهْوَنُ خَلِيْقَتِهِ ما ابْتَلاكَ بِرَمي الكَعْبَةِ بِحِجَارَةِ المِنْجَنيقِ ، وقَتْلِ التَّقيِّ النَّقِيِّ ابنِ ذَاتِ النِّطَاقَينِ!!

وَيْحَكَ يا حَجَّاجُ! لَقَدْ غَلَبَتْكَ امْرَأَةٌ ـ وَهِيَ غَزالَةُ الحَرُورِيَّةُ ـ وَصَدَقَ القائِلُ:

أسدٌ عَليَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ

فَتخَاءُ تَنفُرُ مِنْ صَفِيْرِ الصَّافِرِ

هَلاّ بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةَ فِي الوَغَىٰ

أَمْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ

صَدَعَتْ غَزَالَةُ قَلْبَهُ بِفَوارِسٍ

تَرَكَتْ نَوَاظِرَهُ كَأَمسِ الدَّابِرِ

ثُمَّ أَمَرَتْهُ بالانصِرافِ ، فانصَرَفَ وَهُوَ لا يَرَىٰ أَمَامَهُ!

فَلَمَّا دَخَلَ على الخَلِيْفَةِ سَأَلَهُ: ماذا جَرَىٰ مَعَكَ؟

أَجابَ: واللهِ يا أَمِيرَ المُؤمنِينَ! ما سَكَتَتْ (أُمُّ البَنِينِ) حَتَّىٰ كَانَ بَطْنُ الأَرْضِ أَحَبَّ إِليَّ مِنْ ظَهْرِهَا ، ومَا ظَنَنْتُ أَنَّ امْرَأَةً تَبْلُغُ بَلاَغَتُها ، وتُحْسِنُ فَصَاحَتَها ، وتُدْلِي حجَّتَها ؛ ما بلغتْ أُمُّ البنين.

فَضَحِكَ الخَلِيْفَةُ ثُمَّ قالَ: يا حَجَّاجُ! إِنَّها ابنَةُ عَبْدِ العَزِيزِ بن مَروانَ..

وَرَدَّدَ الجَمْيعُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

فَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمثْلِ هَذي
لَفُضِّلَتِ النِّساءُ عَلَى الرِّجَالِ
فَما التَّأنِيثُ لاسْمِ الشَّمسِ عَيْبٌ
وَلا التَّـذكيـرُ فَخْـرٌ لِلهِـلاَلِ

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمينَ